طرفة بن العبد

هو طرفة بن العبد بن سفيان،[1] نسبه المفضل إلى معد بن عدنان، ويقولون: إنه أشعر الشعراء بعد امرئ القيس، وإنما نظروا إلى مرتبة قصيدته في الطوال على الترتيب المشهور، وإلا فامرؤ القيس مختلف في تقديمه عندهم، وقد أورد صاحب الجمهرة قصيدة طرفة آخر السبع، فقدمهم عليه جميعًا، وهو على رأي المفضل من أن أصحاب السبع هم: امرؤ القيس، وزهير، والنابغة، والأعشى، ولبيد، وعمرو، وطرفة، ولما كانت مثل هذه الأقوال المتضاربة لا تعدو الآراء المرتجلة التي لا ثبت لها، فقد اخترنا إهمالها؛ لأن الرأي لا يزال يعارضه مثله إلى أن ينقطع عند البرهان.

كان طرفة ابن أخت الشاعر المتلمس، وابن أخي الشاعر المعروف بالمرقش الأصغر، فالتقى إليه الشعر من طرفيه، وكان في حسب من قومه، جريئًا على هجائهم وهجاء غيرهم، ولا يُعرف من تاريخ نشأته إلا القليل مما لا يتهيأ به الحكم على مبلغ تأثير نشأته في شعره، غير أن جملة ما يؤخذ من ذلك أنه كان أبيًّا معتدًّا لنفسه، مدلًّا على قومه، واثقًا بمنزلته منهم، جريئًا بمقدار ما تدفع هذه الثقة، مترفعًا إلا عن الملوك، يرجوهم ويهجوهم، فهو يذهب إليهم بنفسه ولكنه يمثل لديهم وكأن في برديه حاشيتي قومه. ولا يعلل ذلك إلا بأنه كان غرًّا لم تسلم به السن بعدُ إلى مذهب عن نزق الحداثة وسكرة الشباب؛ لأنه مات وله خمس وعشرون سنة بدليل قول أخته الخِرنِق في رثائه:

عددنا له خمسًا وعشرين حجةً فلما توفَّاها استوى سيِّدًا ضخمًا

فجُعِنَا به لما استتم تمامه   على خير حالٍ لا وليدًا ولا قحما

القحم: المتناهي في السن. ويروى: ستًّا وعشرين حجة. وقال بعضهم: إنما بلغ عمره نيِّفًا وعشرين سنة، فلا يبعد أن تكون ثمَّ رواية: إحدى وعشرين حجة، وعلى أي هذه الأقوال فقد خبَّ هذا الشاعر وركض بسنيه القليلة في مثل الأعمار الطوال، وكان منصبًا على اللهو، يعاقر الخمر ويتلف بها ماله، فأورثته جنون الكبرياء وقتلته بلسانه الذي انتضى منه سيف الهجاء. روى الجاحظ (البيان: الجزء الأول): قيل لامرئ القيس بن حجر: ما أطيب عيش الدنيا؟ قال: بيضاء رعبوبة، بالطِّيب مشبوبة، بالشحم مكروبة! وسُئل الأعشى فقال: صهباء صافية تمزجها ساقية، من صوب غادية، وقيل مثل ذلك لطرفة فقال: مطعم شهيٌّ، ومركب وطيٌّ!

وفي سبب قتله أقوال متقاربة، أمثلها ما رواه يعقوب بن السكيت في شرح ديوانه، قال:[٢] إن طرفة لما هجا عمرو بن هند بأبياته التي أولها:

فليت لنا مكان الملك عمرو   رَغوثًا[٣] حول قبتنا تخور

لم يسمعها عمرو بن هند، حتى خرج يومًا إلى الصيد فأمعن في الطلب، فانقطع في نفر من أصحابه حتى أصاب طريدته، فنزل وقال لأصحابه: اجمعوا حطبًا، وفيهم ابن عم طرفة، فقال لهم: أوقدوا، فأوقدوا نارًا وشوى، فبينما عمرو يأكل من شوائه وعبد عمرو يقدم إليه، إذ نظر إلى خصر قميصه منخرقًا فأبصر كشحه وكان من أحسن أهل زمانه جسمًا، وقد كان بينه وبين طرفة أمر وقع بينهما منه شرٌّ فهجاه طرفة بأبيات فقال له عمرو بن هند، وكان سمع تلك الأبيات: يا عبد عمرو، لقد أبصر طرفة حسن كشحك، ثم تمثل فقال:

ولا خير فيه غير أن له غنى   وأن له كشحًا إذا قام أهضما

فغضب عبد عمرو مما قاله وأنف فقال: لقد قال للملك أقبح من هذا! قال عمرو: وما الذي قال؟ فندم عبد عمرو وأبى أن يُسمعه، فقال: أسمعنيه وطرفة آمن، فأسمعه القصيدة التي هجاه بها … فسكت عمرو بن هند على ما قرر في نفسه، وكره أن يعجل عليه لمكان قومه فأضرب عنه — وبلغ ذلك طرفة — وطلب غِرته والاستمكان منه، حتى أمن طرفة ولم يخَفْه على نفسه، فظن أنه قد رضي عنه، وقد كان المتلمس

— وهو جرير بن عبد المسيح — هجا عمرو بن هند، وكان قد غضب عليه، فقدم المتلمس وطرفة على عمرو بن هند يتعرضان لفضله، فكتب لهما إلى عامله على البحرين وهجر ... وقال لهما انطلقا إليه فاقبضا جوائزكما، فخرجا، فزعموا أنهما لما هبطا النجف قال المتلمس: يا طرفة، إنك غلام غرٌّ حديث السن، والملك من قد عرفت حقده وغدره، وكلانا قد هجاه، فلست آمنًا أن يكون قد أمر فينا بشرٍّ، فهلم ننظر في كتابنا، فإن يكن أمر لنا بخير مضينا فيه، وإن يكن أمر فينا بغير ذلك لم نُهلك أنفسنا، فأبى طرفة أن يفك خاتم الملك، وحرص المتلمس على طرفة فأبى، ثم كان من أمرهما أن قتل طرفة، قتله عامل عمرو بن هند على البحرين ويقال إنه لما قرأ العامل الصحيفة عرض عليه فقال: اختر قتلة أقتلك بها، فقال: اسقني خمرًا، فإذا ثملتُ فافصد أكحلي، ففعل حتى مات، وذكر ذلك البحتري بقوله:

وكذاك طرفة حين أوجس خيفة — في الرأس، هان عليه فصد الأكحل

قال المرتضى في أماليه:[٤] ويقال إن صاحب هذه القصة هو النعمان بن المنذر، وذلك أشبه بقول طرفة:

أبا منذرٍ كانت غرورًا صحيفتي — ولم أعطكم بالطوع مالي ولا عرضي
أبا منذرٍ أفنيت فاسْتَبْقِ بعضنا — حنانيك، بعضُ الشر أهون من بعض

وأبو المنذر هو النعمان بن المنذر، وكان النعمان بعد عمرو بن هند، وقد مدح طرفة المتلمس في النعمان، فلا يجوز أن يكون عمرو قتله، فيشبه أن تكون القصة مع النعمان.

وقالوا: إن طرفة نطق بهذين البيتين (أبا منذر ...) لما أيقن بالموت، وقد عدُّوه بهما فيمن شعْرُه في رويته وبديهته سواءٌ عند الأمن والخوف، لقدرته وسكون جأشه وقوة غريزته، كهدبة بن الخشرم ومرة بن محكان السعدي.[٥]

ويقال: إن ذلك كان سنة ٥٥٢ بعد الميلاد، وقيل: سنة ٥٦٤.

شعره

لم ينص أحد على مقدار ما صحت به الرواية عن طرفة، إلا أن بعضهم ذكر أن ما يصح من ذلك أحد عشر شعرًا، فلا يميز من المنحول في شعره إلا القليل، وإلا ما جاءت بسببه رواية من الروايات، كبعض القصائد التي نسبها له حماد، وستعرف شيئًا منها في بحث الرواية والرواة،[٦] غير أن طويلته من شعره الذي لا خلاف في نسبته، وإن كانت لا تخلو من تهذيب الرواة وزيادتهم فيها، وهي التي فضله الناس بها وجعلوها واحدته وقالوا فيه من أجلها إنه أجودهم طويلة، وتكاد هذه القصيدة تكون ديوانه؛ لأنها جمعت محاسن صنعته وضمت أطراف معانيه واطردت اطراد الماء، وهي التي جعلت صاحبها أضرب شعراء الجاهلية مثلًا عند قتيبة فيما أجاب به الحجاج حين كتب إليه يسأله عن أشعر الجاهلية وأشعر أهل زمنه، وقد عدَّ العلماء أكثر مخترعات طرفة منها. كقوله فيها:[٧]

ولولا ثلاثٌ هنَّ من لذة الفتى	وجَدِّك، لم أحفل متى قام عُوَّدي
فمنهن سَبْقي العاذلات بشَربة	كميت متى ما تُعْل بالماء تُزْبِدِ
وكَرِّي إذا نادى المضاف مجنَّبًا	كسيد الغضا ذي الطخيَّة[٨] المتورِّد
وتقصير يوم الدَّجنِ الدجنُ معجِبٌ	ببَهْكَنةٍ تحت الطِّراف المعمَّد

ولم يجدوا له مخترعًا في غيرها إلا قليلًا.

روى بعضهم في سبب قولها، إنه كان لطرفة أخ اسمه معبد، وكان لهما إبل يرعيانها يومًا ويومًا، فلما أَغَبَّها طرفة قال أخوه معبد: لِمَ لا تسرح في إبلك؟ تُرى أنها إن أُخذت تردها بشعرك هذا؟ قال: فإني لا أخرج فيها أبدًا، حتى تعلم أن شعري سيردُّها إن أخذت! فتركها وأخذها ناس من مضر.

وقيل: بل إن الإبل التي ضلَّت هي إبل معبد فسأل طرفة ابن عمه مالكًا أن يعينه في طلبها فلامه، وقال: فرطت فيها ثم أقبلت تتعب في طلبها! فقال قصيدته، وهي تربي على مائة بيت، وتختلف بعد المائة باختلاف الروايات، ذكر فيها الأطلال واستوقف بها ثم شبَّه قباب النساء بسفين الماء، ووصف ذات هواه في الحي فبسط من ذلك صورة رائعة من صور الطبيعة، ثم التفت إلى ناقته فأمضى بها الهم عند احتضاره، واستأمن بها على وضح الطريق من عثاره، ووصف من توثيق خَلْقها وطيب مرعاها وكرم العتق فيها

وتراصف عظامها وتداخل أعضائها؛ فبنى على ذلك بناء يحسن أن يكون بابًا من علم التشريح البيطري في الجاهلية ... ثم ذكر نشاطها وإسراعها وسهولتها، ونقل من ذلك إلى نفسه فوصف نفاذه ومضيُّه على الهول وأنه يتقلب على جنبي السيادة واللهو، ونسج من ذلك حاشيته، ثم كأنما سكر كلامه فوصف من سفهه ما تحامته من أجله العشيرة حتى أُفرد إفراد البعير الأجرب المذلل ... وبعد أن انتهى إلى المذلة صحا على لائمه وأخذ يعدُّ لذاته مما وصفه بالمخيلة والفتوة ونضرة العيش، ثم خرج من ذلك بالسوداء، فذكر الموت ووازن بينه وبين الحياة، ليدل على أن ربح الحياة هو الربح وصار كلامه من ذكر الموت إلى النزع، غير أنه هجم بهذا الموت يعاتب ابن عمه مالكًا الذي ضيَّع إبله، فكأنه يذكره أن ضياع إبله خطب يسير، إذ يحمّ القضاء فتضيع روحه في الوادي الذي لا يتقدم فيه يطلبها ولا تنشد فيها عند ربها، ثم جعل يذكِّره بالقربى ورعايتها كأنه يستعطف، ولكنه اتخذ من ذلك وسيلة تخلص بها إلى عمرو بن مرثد أحد سادات العرب، فقال:

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد   ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد

وكان عمرو هذا كثير الولد، فقالوا إنه لما بلغه قولُ طرفة وجه إليه وقال: أما الولد فالله يرزقك، وأما المال فسنجعلك فيه أسوتنا، فأمر سبعةً من ولده فدفع إليه كل واحد عشرًا من الإبل، وأمر ثلاثة من بني بنيه فدفع إليه كل واحد عشرًا.

ثم عاد طرفة فنفض غبار الذلة، واتكثر بعد القلة، وتميَّح في شعره وهدرت هذه الكمات في أشداقه، حتى قطع القصيدة على حكمة بالغة لا تزال تدور في الناس فهو بها على الفناء يتجدَّد، وكأنها كانت نفَسًا من أنفاس المخلود فقرنت باسمه من هذه القوافي الدالية قافية «المخلَّد».

ومن مختار تلك القصيدة قوله:

إذا القومُ قالوا مضن فتًى؟ خِلْتُ أنني   عُنيتُ، فلم أكسلْ ولم أتبلَّدِ
وإن يَلتقِ القومُ الجميعُ تُلاقني   إلى ذروة البيت الرفيعِ المصَمَّد
أرى قبر نحَّامٍ بخيلٍ بماله   كقبر غَوِيٍّ في البطالة مفسِد
أرى الموت يعتامُ الكرامَ ويصطفي   عقيلة مالِ الفاحشِ المتشدد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى   لكالطِّولِ المرْخَى وثنْياه في اليد

وقوله مفتخرًا فيها:

أنا الرجل الضرْبُ الذي تعرفونه   خشاشٌ[٩] كرأس الحيةِ المتوقدِ
فآليتُ لا ينفكُّ كشجي بطانةً   لعضْبٍ رقيق الشفرتين مُهنَّد
إذا ابتدر القومُ السلاح وجدتني   منيعًا إذا بلَّت بقائمه يدي

وختامها:

ستبدي لك الأيام ما كنتَ جاهلًا   ويأتيك بالأخبار من لم تُزَوَّد
ويأتيك بالأنباء من لم تبع له   بتاتًا ولم تضرب له حين موعد

مذاهبه في الشعر

ليس فيما وقع إلينا من شعر الجاهلية ما ينطق بأن صاحبه شاعر قبيلة بمجموع هذا المعنى، غير شعر طرفة؛ فهو إذا فخر رأيته يتكلم بلسان ملك قد ضمن طاعة قومه واستمسك بميثاقهم، وما كان أحق امرئ القيس بمثل هذا الفخر فيقيم به جهة من شعره قد تركها وهي تريد أن تنفضَّ.

وقد وصف طرفة النوق وصفًا شعريًّا، ولكنه قصر في صفة الخيل وجاءت في كلمه متفرقاتٌ من الحكم والأمثال، وهي أبدع ما في شعره، ثم هو قد ضرب في الهجاء بالسهم الصائب ورجم فيه بالشهاب الثاقب، ولكنه قليل المديح نازل الطبقة فيه، ولم يؤثر له في ذلك إلا ما يرد على قومه، وهو مدحه لقتادة بن سلمة الحنفي حين أصاب قومه سنةٌ فأتوه فبذل لهم، وثم أبياتٌ قالوا إنه مدح فيها سعد بن مالك حين أُطرد فصار في غير قومه وقد ذكرهم فيها بقوله:

وليس امرؤ أفنى الشباب مجاورًا   سوى حيِّه إلا كآخرَ هالك

ولعل مديحها منحول إذ يقول فيه:

رأيت (سعودًا) من شعوب كثيرة　　فلم ترَ عيني مثل سعد بن مالك

وليس مثل هذا مما يقوله طرفة.

ويمتاز هذا الرجل بالمبالغة والإغراق، فكأنه ينظر إلى دقائق الوصف بعين من البلور ... وذلك كقوله في وصف الناقة:

كأن جناحَي مضرحِيَّ تكنَّفا　　حفافيْه شُكا في العسيب بمسرد[١٠]
فطوْرًا به خلف الزميل، وتارةً　　على حشف كالشنّ ذاو مُجدَّد[١١]
لها فخذان عُوليَ النحضُ فيهما　　كأنهما بابًا منيف مُمَرد[١٢]
كأن كناسَي ضالة يكنفاها　　وأطر قسيٍّ تحت صلب مؤيد[١٣]
لها مرفقان أفتلان كأنما　　أمرا بسلمي دالجِ متشدد[١٤]
كقنطرة الرومي أقسم ربها　　لتُكْتَنَفَنْ حتى تُشادَ بِقِرْمِدِ[١٥]

فقد أراد أن يصف ذنب الناقة بكثرة الهلب، وهو الشَّعر الكثير، فشبهه بجناحي النسر، وجعل فخذيها كبابي الصرح الممرَّد، وشبه تباعد ما بين مرفقيها وزورها بكناس الظبي حول الشجر، ثم شبه الناقة في ارتفاعها بقنطرة الرومي الذي جعله يقسم على قنطرته لتُحاطنَّ بالبناء، وتشادنَّ بالقرمد، ولعمري ليس هذا القَسم بأكثر من اللغو. وقد مر في مثل هذه التشبيهات حتى وصل إلى عيني الناقة فجعلهما من حجاجيهما في مثل غارين من الجبل، ولو أنه مد في عنق هذه الناقة فشبهه بأطول من خراطيم السحاب ...

وإنما تحسن المبالغة إذا لم يكن التشبيه منكشفًا هذا الانكشاف فيكون في إحدى جهاته سبب الأسباب التي يصح أن تتعلق عليه المبالغة، وسيأتيك هذا في موضعه مفصلًا.

ومن نوع قسم الرومي في شعر طرفة قوله متغزلًا يصف الأقحوان:

وتبسم عن ألْمَى كأنَّ منوَّرًا　　تَخَلَّل حُرَّ الرمل دِعْصٌ له نَدِي[١٦]

سَقَتْهُ إياة الشمي إلا لثاته أُسِف ولم تَكدِم عليه بإثمِدِ[١٧]

فحاصل البيتين أنه يُشَبِّه ثغر التي يتغزل فيها بالأقحوان الندي، ويقول إنها قد ذرَّت الإثمد على لثاتها (وسائر العرب يفعلن ذلك في الشفاه واللثات ليكون أشد للمعان الأسنان) غير أن تخلُّل الدعص الندي من الأقحوان المنوَّر لحرِّ الرمل، والوصول من ذلك كله إلى تشبيه الثغر بالرفيف واللمعان لا يُعدُّ فلاحًا في الغزل وأولى به أن يكون فلاحة ...

والصنعة في شعر طرفة قليلة إلا أنها جيدة، وأرى شعر هذا الرجل كالشباب: حقيقة جماله في القوة والمتانة، فإن اتفق معه شيء من ظواهر الجمال كان ذلك بمجموعه كمالًا، فمن مشهور استعاراته قوله:

فإذا ما شربوها وانتشوا وهبوا كل أمون وطِمِرْ
ثم راحوا عبَقُ المسك بهم يلحفون الأرض هُدَّابَ الأزر

وهي غاية من غايات هذا الجواد: فإن البيت يصور الجمال والقوة والكبرياء، ويكاد يريك الناس مطرقين قد تعلقت أعينهم بهُدَّاب تلك الأزرُ. ومن هذه القصيدة بيت دائر في كتب اللغة والأدب، وهو قوله:

نحن في المشتاة ندعو الجَفَلَى لا نرى الآدِبَ فينا ينتقر

غير أن حياة هذا البيت تاريخية لا شعرية؛ لأنه إنما سار وبقي للاستشهاد بألفاظه، ومن كلماته الجميلة قوله: (وعامت بضبعيها). إذ يصف الناقة بأنها تمد يديها كهيئة السابح وقوله: (طُرَّاد الغرام) في صفة قومه بالبذل والسفَه، وقوله في صفة الحرب يذكر قومه:

لا ترى إلا أخا رجل آخِذًا قِرنا فملتزمه

فهذه الكلمة (أخا رجل) في موضعها من أبلغ الكلم، بل هي من جوامعها؛ لأنها تدل على كثرة قومه وإقدامهم، وتوزعِهِم في الحرب توزع الآجال واستغراقهم أعدائهم، إلى نحو ذلك، ومن هذه القصيدة الحكمة السائرة:

للفتى عقل يعيش به حيث تَهدي ساقه قدمُهْ

ومما أختاره له في الحماسة قوله:

وأعلم علمًا ليس بالظنِّ أنه إذا ذَل مولى المرء فهو ذليلُ
وأن لسان المرء ما لم يكن له حصاةٌ على عوراته لدليل

ولا يزال الكتَّاب لعهدنا يكتبون «علم ليس بالظن» وهم يظنون أنها معرَّبة ... وقد جاءت في شعر إسلامي من شعر المائة الأولى: وأعلم غير الظن، وهي أبلغ وأوجز.

هوامش

(١) ذكر الآمدي في المؤتلف والمختلف: من اسمه طرفة من الشعراء أربعة: أولهم هذا. والثاني طرفة بن ألاءة بن نضلة. والثالث طرفة الجذمي أحد بني جذيمة العبسي. والرابع طرفة أخو بني عامر بن ربيعة (ص٤١٧ ج١: الخزانة).
(٢) ذكر البغدادي في خزانة الأدب أن لديوان طرفة شرحًا آخر للأعلم الشنتمري. انظر خزانة الأدب ١ / ٤١٥.
(٣) الرغوث: النعجة المرضع.
(٤) المرتضى في أماليه: ١ / ١٣١.
(٥) العمدة: ١ / ١٢٩.
(٦) بحث «الرواية والرواة» يشكل الباب الثاني من أبواب الكتاب، وقد ورد في الجزء الأول ص٢٦٩.
(٧) العمدة: ١ / ١٧٦.
(٨) قلت: الطخية: الظلمة الشديدة.
(٩) قلت: الخشاش: الخفيف الروح الذكي.

(١٠) المضرحي: النسر. وتكنفا: أحاطا. وحفافاه: جانباه. والعسيب: عظم الذنب. والمسرد: المخصف الإشفي.

(١١) الزميل: الرديف، والحشف: الضرع الذي لا لبن فيه. والشن: القربة الخلقة. والذاوي: اليابس. ومجدد: أي لا لين فيه ولا لبن.

(١٢) عولي: رفع بعضه على بعض. والنحض: اللحم. والمنيف: المشرف. والممرد: الملمس.

(١٣) الكناس بيت الظباء. والضال: السدر البري. وأطر القسي: عطفها وانحناؤها. والمؤيد: الموثق، من الأيد، أي القوة.

(١٤) أمرا: أي فُتلا. والسلم: الدلو لها عروة. والدالج: الذي يمسي بالدلو من البئر إلى الحوض. والمتشدد المتكلف الشدة.

(١٥) القنطرة: الجسر. وتشاد بقرمد: أي تُرفع بجص ... (ص٨٥: الجمهرة).

(١٦) اللمى: سواد في الشفة، والمنور: الأقحوان. وحر الرمل: النقي منه، والدعص: الكثيب الصغير من الرمل.

(١٧) الإياة: ضوء الشمس. واللثة: مغرز الأسنان. يقول: أسنانها بيض، ولثاتها زرق. وأسف: أي ذر عليه. ولم تكدم: أي لم تعض فتختلف نبتته وأصوله، والإثمد: الكحل.